

## الباب الثالث

### المكي والمدني عند نصر حامد أبو زيد

#### أ. معايير التمييز

بعض العلماء لهم المعايير في التفريق بين المكي والمدني. عن هذه المسألة، عبّر نصر حامد أبو زيد إن للعلماء آراء مختلفة حول معايير التمييز بين المكي والمدني. للعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية، كل رأي منها بُني على اعتبار خاص.

الأول: اعتبار زمن النزول، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة ولو كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة ولو كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة، أو عرفة: مدني. الثاني: اعتبار مكان النزول، فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية. والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وقُباء ولسع.

الثالث: اعتبار المخاطب، فالمكي: ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة. وينبغي على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } مكي، وما فيه من قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } مدني.<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، (بدون مكان: منشورات العصر الحديث، 1411 هـ-1990 م)،

يشرح أيضا السيوطي الفرق بين المكي والمدني وهي: أشهرها أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار.

الثاني: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الوساطة فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني .

الثالث: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة.<sup>2</sup>

للعلماء الآخرين أيضا معايير مماثلة، بل المعارف الواسعة جعل بحوثه أشد وألوانا:

فهو في آن واحد ترتيب زمني، وتحديد مكاني وتبويب موضوعي، وتعيين شخصي .

تقسيم المكي والمدني على أساس من المكان أو الزمان أو الأشخاص.

فمن قال: "المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة" لاحظ

المكان، ومن قال: "المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة"

راعى أشخاص المخاطبين، في تقسيم المكي والمدني على أساس من المكان أو الزمان أو

الأشخاص. فمن قال: "المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة" لاحظ

المكان، ومن قال: "المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة"

راعى أشخاص المخاطبين.

<sup>2</sup> جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج 1، (بيروت: دار الفكر، 1370 م/1951 هـ)، الطبعة

ومن أثر الأخذ بالاصطلاح المشهور: "المكي ما نزل قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكة"، عني بالترتيب الزمني في مراحل الدعوة الإسلامية.

ونحن إذا أخذنا بهذا التعريف الأخير لا نكتف القارئ ما نلمحه من تحقق عناصر الزمان والمكان والأشخاص في الاصطلاحات الثلاثة على السواء<sup>٣</sup>، بل نلمح فيها أيضا عنصراً رابعاً لا يخفى على ذي بصر: وهو عنصر الموضوع. هذه سورة الممتحنة من مطلعها إلى ختامها<sup>٤</sup> نزلت بالمدينة إذا لاحظنا المكان، وكان نزولها بعد الهجرة إذا اعتبرنا الزمان، ووقعت خطاباً لأهل مكة إذا أردنا الأشخاص، واشتملت على توجيه اجتماعي محص قلوب المؤمنين إذا رغبنا بمعرفة موضوعها.

وذلك قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا }<sup>٥</sup> نزل بمكة إذا التمسنا المكان، ويوم الفتح بعد الهجرة إن تحرينا الزمان، والغاية منه الدعوة إلى التعارف وتذكير الإنسانية بوحدة أصلها إن عينا الموضوع.<sup>٦</sup>

عبّر نصر حامد ابو زيد أن اعتماد علماء القرآن —غالباً— على معيار المكاني

للتفرقة بين المكي والمدني. ولما كان مكان الإتصال/الوحي مرهوناً دائماً بمكان المتلقي الأول

<sup>٣</sup> بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، (بيروت: دار المعرفة، 1376 هـ - 1957 م)، الطبعة: الأولى، ص 195.

<sup>٤</sup> انظر تفصيل قصتها في سيرة الرسول لابن هشام، ص 16-17. وقد نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين دفع كتابه إلى قريش يجبرها بمسير النبي إلى مكة.

<sup>٥</sup> سورة الحجرات: 13.

<sup>٦</sup> صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، (بيروت: دار العلم للملايين، 2000)، الطبعة الرابعة والعشرون، ص 167-168.

للوحي الذي هاجر من مكة إلى المدينة، ثم عاد إلى مكة فاتحاً، وأخذ يتردد عليها بعد ذلك زائراً أو حاجاً.<sup>٧</sup> فعن هذا قد ذهب بعض العلماء إلى ( أن المكّي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة )<sup>٨</sup>. وبالغ بعضهم في التفرقة المكانية، فوضعوا تصنيفاً خاصاً لما نزل بين مكة والمدينة في سفريات الرسول، وما نزل بعد الهجرة في الفتح أو في الحج، كما اهتموا بما نزل في غير مكة والمدينة، وما نزل على الجبال بين السماء والأرض، وما نزل في الغار تحت الأرض، وفرقوا كذلك بين السّفري والحضري، وبين الليلي والنهاري، وبين السّمائي والأرضي.<sup>٩</sup>

قال نصر حامد ابو زيد إنّ كلّ هذه التقسيمات تستند إلى معيار المكان أساساً للتقسيم وذلك دون اعتبار لآثر ذلك في النص من حيث المضمون أو من حيث الشكل. في هذه الحالة يقول نصر حامد ابو زيد إن هناك علماء كانوا يعتبرون الإفراط في الجوانب التي تميز المكان. وهذا أيضاً هو السبب في أن العلماء كما قال نصر حامد ابو زيد تعتمد فقط على جوانب مكان دون رؤية محتوى اتنص القرآن نفسه.

وتم معيار آخر للتفرقة بين المكّي والمدني هو معيار "المخاطبين" بالنص على التغليب في كل مرحلة من المرحلتين.<sup>١٠</sup> ويذهب أصحاب هذا المعيار إلى أنّ ( المكّي ما

---

<sup>٧</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1990)، الطبعة الأولى، ص 76.

<sup>٨</sup> جلال الدين السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، ص 9.

<sup>٩</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 76. نقل في السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، ص 9.

<sup>١٠</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 76.

وقع خطابا لأهل مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة )<sup>١١</sup> والعلامة الوحيدة التي تطرح لهذه التفرقة أن ( كل سورة فيها "يأيها الناس" وليس فيها "يأيها الذين آمنوا" فهي مكية، وفي "الحج"<sup>١٢</sup> اختلاف).<sup>١٣</sup> لكن هذا المعيار معيار ناقص لأن مخاطبات القرآن كثيرة جداً.<sup>١٤</sup> والمخاطبين بالقرآن لم يتجاوزوا ثنائية "الناس" و "المؤمنين".<sup>١٥</sup>

وبعد ذلك معيار التصنيف. إن معيار التصنيف يجب أن يستند إلى الواقع من جهة وإلى النص من جهة أخرى. إلى الواقع من حيث أن حركة النص ارتبطت بحركته، وإلى النص من حيث مضمونه وبنائه. ذلك أن حركة النص في الواقع تنطبع آثارها في جانبي النص. فإذا نظرنا إلى حركة الواقع فلا بد أن ندرك أن (المهجرة) من مكة إلى المدينة لم يكن مجرد انتقال في المكان. وإذا كانت مرحلة الدعوة في مكة لم تكد تتجاوز حدود (الإنذار) إلى حدود (الرسالة) إلا قليلاً، فإن النقلة إلى المدينة حولت الوحي إلى (رسالة). والفارق بين (الإنذار) و (الرسالة) أن الإنذار يرتبط بمصارعة المفاهيم القديمة على مستوى الفكر

<sup>١١</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 187. وانظر أيضاً في السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن،

ص 9.

<sup>١٢</sup> عن سورة الحج ذكر متاع القطان و السيوطي أنها مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة، من أول قوله

تعالى: (

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٩﴾ -، و قال الزركشي أن سورة الحج مدنية وفيها أربع آيات مكيات قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَخَّى) إلى قوله: (عَقِيم). وفي الكتاب دفاع عن القرآن ضد منتقديه يُقال إن سورة الحج كلها مدنية و قال بعضهم أنها مكية. عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، (بدون مكان: الدار العلمية للكتاب والنشر، دون التاريخ)، ص 111-123. وانظر متاع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 56. وانظر في السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، ص 12. وانظر في الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 202-203.

<sup>١٣</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 188. وانظر أيضاً في السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، ص 17.

<sup>١٤</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 77.

<sup>١٥</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص 217-253، وانظر أيضاً في السيوطي، الإتيقان في علوم

القرآن، ج 2، ص 33-35.

والدعوة إلى المفاهيم الجديدة. ان (الإنذار) بهذه المثابة تحريك للوعي لإدراك فساد الواقع والنهوض من ثم إلى تغييره. و (الرسالة) تعني بناء أيديولوجية المجتمع الجديد. ولم يكن يمكن أن تتم هذه النقلة فجأة. فقدت هذه المرحلة الثانية بدأت فعلاً حين بدأ النبي - بعد الهجرة الأولى لبعض المسلمين إلى الحبشة- يعرض نفسه على الوفود التي كانت تأتي إلى مكة في موسم الحج. فبايعه أهل يثرب على أن يفدوه مما يفدون منه أهلهم وأبناءهم بعد أن قبلوا (الإسلام). وكان ذلك ايذاناً بتحول جديد في تاريخ الدعوة. ومن ثم في حركة النص.<sup>١٦</sup>

إن معيار التصنيف الذي يستند إلى الواقع اذن يجب أن يقوم على أساس التفرقة بين هاتين المرحلتين، و التسمية (المكي والمدني) لا يجب ان تكون إشارة للمكان فحسب، بل يجب ان تكون إشارة على مرحلتين تاريخيتين.<sup>١٧</sup> من هذا المنطلق نصر حامد ابو زيد يختار:

*أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل*

*بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار.*<sup>١٨</sup>

وفي مثل هذا التعريف نصر حامد ابو زيد يعتبر ما نزل في مكة بعد الهجرة مدنياً

مادام معيار المكان ليس هو أساس التصنيف، ويكون ما نزل في طريق السفر إلى المدينة

أول مرة مكياً، ولا إعتبار لأي معيار آخر. ولكن لا يمكن أن نعتمد على هذا المعيار

<sup>١٦</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 77.

<sup>١٧</sup> نفس المرجع.

<sup>١٨</sup> جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، ص 9.

وحده للتفرقة بين المكي والمدني، فالوثائق التاريخية المتوفرة لدينا من أقوال الصحابة والتابعين غير كافية وغير حامية في نفس الوقت.<sup>١٩</sup>

ما يتعلّق بهذا المسألة نقل نصر حامد أبو زيد قول القاضي أبو بكر في الانتصار:

إنما يرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين ولم يرد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك قول لأنه لم يؤمر به. ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول.<sup>٢٠</sup>

وفي حالة غياب الوثائق الحامية فإن الإعتماد على الذاكرة يجعل التفرقة -اعتماداً

على الرواية وحدها- مسألة إجتهادية. لذلك وضع العلماء القدماء بعض المعايير

المضمونية من النص ذاته للتفرقة بين المكي والمدني، فذهبوا إلى:<sup>٢١</sup>

كل سورة فيها (يأيها الناس) وليس فيها (يأيها الذين آمنوا)

فهي مكية وفي الحج اختلاف.

وكل سورة فيها (كلا) فهي مكية، وحكمة ذلك أن نصفه

الأخير (نصف القرآن حسب ترتيب التلاوة حسب ترتيب النزول) نزل

أكثره بمكة وأكثرها جبابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم

<sup>١٩</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 78.

<sup>٢٠</sup> جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، ص 9. وانظر الزركشي، البرهان في علوم القرآن،

ج 1، ص 191-192.

<sup>٢١</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 78.

والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول . وكل سورة فيها حروف المعجم  
فهي مكية إلا البقرة وآل عمران وفي الرعد خلاف .

وكل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة وكل

سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية سوى العنكبوت . كل سورة فيها الحدود

والفرائض فهي مدنية، وكل ما كان فيه ذكر القرون الماضية فهي مكية.<sup>٢٢</sup>

قال نصر حامد ابو زيد أنّ هذه الخصائص ليست جامعة مانعة كما ادراك

القدماء انفسهم، بل هي خصائص وصفات على التغليب . كما عبّر الزركشي في البرهان:

"فإن سورة البقرة مدنية وفيها: ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ) وفيها ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي

الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ) وسورة النساء مدنية وفيها: ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ) وفيها: ( إِنَّ

يَشَأُ يُدْهِنُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ) وسورة الحج مكية وفيها: ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا )

فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح"<sup>٢٣</sup>.

ومن الواضح أن نصر حامد ابو زيد استخدم عدة معايير للتمييز المكّي والمدني،

وهي:

أولاً، معيار المكان، أن الآية/السورة التي وقعت في مكة المكرمة يعني مكّي و

الآية/السورة التي وقعت المدينة المنورة بعد هجرة يعني المدني بالرغم من ذلك.

<sup>٢٢</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، ص 188 . وانظر أيضاً في السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، ص

17-18 . وانظر عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص 112 .

<sup>٢٣</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، ج 1، ص 190 .



ثانياً، معيار المخاطب، أن السورة التي توجد فيها الكلمة " يَا أَيُّهَا النَّاسُ " وعدم الكلمة " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " هي مكّي. ومع ذلك، تعتبر هذه المعايير المعيبة من قبله.

الثالث، معايير التصنيف، وتنقسم هذه المعايير إلى وجهات النظر من جوانب الواقع أو من حيث النص. من جوانب الواقع يستشهد كأساس لرأي السيوطي: أن المكّي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار.

في حين جوانب النص، وقال انه يذكر عدة الخصائص المميزة التي تبرز في النص مكّي ومدني.

### ب. معيار الأسلوب

إذا كان تحديد المكّي و تمييزه عن المدني على سبيل الحسم يظل أمراً إجتهدياً، فقد كان اجتهاد العلماء القدماء عادة يتركز في الترجيح بين المرويات دون أن يتجاوز ذلك إلا قليلاً إلى محولة البحث عن خصائص أسلوبية فارقة إلى جانب المعيار الزماني و المعيار الموضوعي.<sup>٢٤</sup>

في اسلوب لغة التمييز بين المكّي والمدني، ويحدّد بعض العلماء بعض الخصائص. أما من ناحية خصائص الأسلوب آيات المكّيية في مكان إجمالها فيما يأتي:

<sup>٢٤</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 79.

1. الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء،

وذكر القيامة، وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين

بالبراهين العقلية، والآيات الكونية.

2. وضع الأساس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان

المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلماً،

ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

3. ذكر القصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين

قبلهم، وتسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يصبر على أذاهم

ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

4. قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة بما يصح الآذان، ويشد قرعه

على المسامع، ويصعق القلوب، ويؤكد المعنى بكثرة القسم، كقصار المفصل

إلا نادراً.<sup>٢٥</sup>

أما من ناحية خصائص الأسلوب آيات المدنية في ملكان إجمالها فيما يأتي:

1. بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواثيق، وفضيلة

الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد

الحكم، ومسائل التشريع.

<sup>٢٥</sup> متاع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 63-64.

2. مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنيتهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بعياً بينهم.
3. الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسياتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.
4. طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها.<sup>٢٦</sup> ووضع كذلك صبحي صالح بعض المعايير في هذا الشأن ، فمما يكثر في السور المكية ويشيع:

1. قصر الآيات والصور وإيجازها وحرارة تعبيرها وتجانسها الصوتي.
2. الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر، وتصوير الجنة والنار.
3. الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير.
4. مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.
5. كثرة القسم جريا على أساليب العرب.<sup>٢٧</sup>

ومن الأمارات الغالبة التي يرجح امتياز القسم المدني بها:

1. طول أكثر سوره وبعض آياته وإطنابها وأسلوبها التشريعي الهادي.

<sup>٢٦</sup> متاع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 64.

<sup>٢٧</sup> صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن ، ص 183. نقل من بروكلمان Brockelmann في دائرة المعارف الإسلامية آراء طريفة حول هذه الأمارات الغالبة أكثرها صحيح من ناحية الدراسة الأسلوبية.

انظر: *Encyclopedie de l'Islam, art Arabie, 411 a*.

## 2. تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية.<sup>٢٨</sup>

وكشف باحثون آخرون أيضاً اختلافات في نمط بين الآيات المكيّة والمدنيّة. أن جاءت الآيات المكية على تصحيح الإيمان، ونبذ الشرك بأنواعه، ودعت إلى الإيمان بالبعث والنشور والجنة والنار والدعوة إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق.<sup>٢٩</sup> أما آيات المدينة توجّه الخطاب إلى أهل المدينة من مؤمنين ومنافقين ويهود، مشجعاً المؤمنين على الدفاع عن وجودهم وكيانهم، كجذراً المنافقين من مغبة ما يفعلون في الظلام من غدر، ناصحاً إياهم بالتوبة، والهزام طريق المؤمنين.<sup>٣٠</sup>

وذكر في دفاع عن القرآن أن يميز المكي بين ثلاث فترات:

1. الفترة الأولى وتشتمل على سور قصيرة جداً، أو قصيرة تتسم الآيات فيها بالتصوير والإيقاع القوي، واتباع السجع ( الفواصل).
2. الفترة الثانية وتكثر فيها قصص الأنبياء السابقين وتبدأ العقائد في الظهور مع إشارات من الطبيعة ومن التاريخ المقدس.
3. الفترة الثالثة له يعد يظهر اسم "الرحمن" في السور وتكرر قصص الأنبياء السابقين إلى حد الملل.<sup>٣١</sup>

<sup>٢٨</sup> صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص 184.

<sup>٢٩</sup> عبد القادر محمد صالح، التفسير والمفسرون في عصر الحديث، (بيروت: دار المعرفة، 2003)، الطبعة

الأولى، ص 65.

<sup>٣٠</sup> نفس المرجع، ص 66. كما نقل من محمد فاروق النبهاني، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص 137.

<sup>٣١</sup> عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص 118-119.

يحدد نصر حامد ابو زيد اثنتين على الأقل من هذه الخصائص الأسلوبية التي تساعد على التمييز بين المكّي والمدني.<sup>٣٢</sup> واحد من نمط الحرف الذي يميز بين المكّي والمدني هي أن المدني أطول من المكّي كما اتضح ذلك من كلام ابن خلدون:

"ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة. وانظر إلى ما نقل في سورة براءة في غزوة تبوك وأنها نزلت كلّها او أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر. وكذلك كان آخر منازل بالمدينة آية الدّين، وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرّحمن والذاريات والمدثر والضحي والفلق وأمثالها. واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكّي والمدني من السور والآيات".<sup>٣٣</sup>

قال نصر حامد ابو زيد الحقيقة أن هذا المعيار - معيار الطول والقصير - يمكن تدعيمه على أساسين وتفسيره بهما أيضاً. الأساس الأول: هو ما سبق أن اشره اليه من إنتقال الدعوة من مرحلة (الإنذار) إلى مرحلة (الرسالة). الإنذار يعتمد على التأثير الذي يعتمد بدوره على لغة ذات أسلوب مركّز وموقّع، وهو أسلوب طاع في قصار السور بصفة عامة، وكلها سور مكية. ولكن الرسالة من جهة أخرى تخاطب المتلقي وتنقل اليه محتوى

<sup>٣٢</sup> نفس المرجع.

<sup>٣٣</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص. نقل من عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، يدون تاريخ)، ص 99.

أوسع من مجرد التأثير، وهي من ثم تحتاج لغة مختلفة على مستوى التركيب والبناء. في الرسالة يغلب جانب نقل المعلومات على جانب التأثير وان كان لا يلغيه إلغاء تاماً. وفي الإنذار تكون الأولوية للتأثير ويقبل جانب نقل المعلومات او يصبح ثانوياً. بناءً على هذا المعيار لا نستطيع أن نتقبل مثلاً ما يذهب اليه السيوطي ( 1445-1505 م) من وجود نصوص في القرآن تأخر حكمها عن نزولها، أي نزلت النصوص أولاً ثم فرض ما فيها من أحكام الشرعية و الفقهية في مرحلة متأخرة غير مقارن لنزول النص. <sup>٣٤</sup> المثال قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)، <sup>٣٥</sup> فإنه يُستدل بها على زكاة الفطر، روى البيهقي بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت في زكاة رمضان، ثم أسند مرفوعاً نحوه، وقال بعضهم: لا أدري ما وجه هذا التأويل؟ لأن هذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة". <sup>٣٦</sup> والأساس الثاني هو مراعاة حال المتلقي الأول من حيث تعودده على حالة الوحي. <sup>٣٧</sup>

شرح نصر حامد ابو زيد هذا المعيار الأول لماذا كانت الآيات المدنية أطول من الآيات المكية. ذلك لأن مرحلة الدعاية في مكة وصلت الآيات النبي لدعوة قريش الكافرة لأن تؤمن فنزلت الآيات بالله، أقصر بحيث انطباعه كان واضحة.

في حين أن المدني هو أطول بسبب مرحلة المدينة يحتوي الآيات للشريعة الإسلامية على أكثر تفصيلاً.

<sup>٣٤</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 80.

<sup>٣٥</sup> سورة الأعلى: 14.

<sup>٣٦</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 32-33.

<sup>٣٧</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 80.

أما الخصيصة الثانية من الخصائص الأسلوبية التي يمكن ان تكون فارقة بين المكّي والمدني فهي خصيصة مراعاة الفاصلة.<sup>٣٨</sup> والفاصلة هي إن اختلفت مع قرينتها في الوزن لا في التقفية فهو المطرف، وان اتفقتا فمتوازٍ، وان تساوت الفاصلتان في الوزن، فإن كان ما في إحدى القرينتين أو أكثره مثل ما يقابله من الأخرى فمماثلة، وان اتفقتا في الحرف الذي قبل الأخير فلزوم ما لا يلزم.<sup>٣٩</sup> الأمثال آيات الفاصلة:

1. (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا).<sup>٤٠</sup>

2. (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ).<sup>٤١</sup>

3. (وَمَارِقٍ مَّصْفُوفَةٍ . وَزَرَابِيٍّ مَّبْثُوثَةٍ).<sup>٤٢</sup>

4. (وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).<sup>٤٣</sup>

5. (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ).<sup>٤٤</sup>

عبر نصر حامد ابو زيد أن هذه الخصيصة يمكن أن تعد جزءاً من الطبيعة اللغوية للغة التأثيرية - لغة الإنذار - فانها يمكن أن تفسر أيضاً في ضوء تشابه آليات النص مع آليات النصوص الأخرى في الثقافة. ورغم تنبه القدماء لأهمية الفاصلة في القرآن بشكل

<sup>٣٨</sup> نفس المرجع.

<sup>٣٩</sup> جلال الدين السيوطي، التحرير في علم التفسير، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1308 هـ-1977 م)

الطبعة الأولى، ص 139.

<sup>٤٠</sup> سورة نوح: 13-14.

<sup>٤١</sup> سورة الواقعة: 28-30.

<sup>٤٢</sup> سورة الغاشية: 15-16.

<sup>٤٣</sup> سورة الصافات: 117-118.

<sup>٤٤</sup> سورة الضحى: 9-10.

عام فانهم تحاشوا أي مقارنة بينها وبين (السجع) الذي كان ظاهرة المألوفة في النصوص الأخرى.<sup>٤٥</sup>

وإذ أخذنا هذين المعيارين الأسلوبين في إعتبارنا جنباً إلى جنب مع معيار المضمون ومعيار ارتباط حركة النص بالواقع - فيما عرف بأسباب النزول- أمكننا أن نحل كثيراً من خلافات القدماء حول المكي والمدني. إن حرص القدماء على الفصل بين النص القرآني والنصوص الأخرى في الثقافة وصل إلى حد تأكيد القطعية الكاملة بين النص والواقع. وذلك سعياً للحفاظ على التقدير الذي ظنوه يتعارض مع انطلاق النص من الواقع وتفاعله به.<sup>٤٦</sup>

في هذا المعيار الثاني نصر حامد ابو زيد تكشف عن أن المعايير الأسلوبية التي تميز بين مكّي والمدني هو آيات الفاصلة. هذه الفاصلة كما هو موضح أعلاه يتم تضمين في الآيات مكّي. في هذه الحالة مستوي نصر حامد ابو زيد بين الفاصلة مع النص وصال ثقافية مسبقاً.

### ج. منهج التلفيق بين الروايات

كان من نتيجة عجز المفكر القديم عن ربط النص بالواقع والثقافة بصفة عامة، وعن ربطه بغيره من النصوص بصفة خاصة، أنه راح يحاول الترجيح بين الروايات المختلفة المتعارضة حول تحديد ما اذا كان نص بعينه مكياً او مدنياً. فإذا تساوت عنده معايير

<sup>٤٥</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 80.

<sup>٤٦</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 81.



الترجيح من حيث صحة السند وصدق الرواة، وهي معايير النقد الخارجي، راح يفترض احد أمرين: الأول أن النص تكرر نزوله، مرة في مكة ومرة في المدينة.<sup>٤٧</sup> كالأية: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} <sup>٤٨</sup>.

والأمر الثاني أن النص نزل في مكة ولكن حكمه الشرعي والفقهي تأخر حتى المرحلة المدنية،<sup>٤٩</sup> كالأية: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} <sup>٥٠</sup>. او بعبارة أخرى يلجأ المفكر القديم إلى افتراض يلغي تماماً الفروق بين المكي والمدني من جهة، ويلغي أسباب النزول من جهة أخرى، وذلك هو افتراض تكرر النزول. أما الافتراض الثاني وهو افتراض تأخر الحكم عن النص فيؤدي إلى فصل النص عن دلالاته وإلى تعليق الدلالة والمعنى وجعلهما خارج النص. وكلا الافتراضين يؤدي إلى شناعات يستحيل أن يتقبلها المفكر القديم ذاته لو مدّ نتائج افتراضه إلى نهايتها المنطقية.<sup>٥١</sup>

إن افتراض "تكرر" نزول السورة أو الآية ليس في حقيقته إلا عجزاً عن مواجهة آراء السابقين واجتهاداتهم بالنقد والتمحيص، وهو عجز نابع من الإيمان بقداصة الأشخاص، ومن ثم من الإيمان بسدد آرائهم واجتهاداتهم. هذا الإيمان و الولاء للماضي يشبه إلى حد كبير موقف الخطاب الديني المعاصر في تقديس المرويات القديمة والإكتفاء بموقف التوفيق بينها، وعدم القدرة على تخطئة أي منها وصولاً إلى أي قدر من مقارنة

<sup>٤٧</sup> نفس المرجع.

<sup>٤٨</sup> سورة الإسراء: 85.

<sup>٤٩</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 81.

<sup>٥٠</sup> كما شرحنا في باب عن معيار الأسلوب في المرجع نمرة 30.

<sup>٥١</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 81.

الفهم العلمي. وليس لهذا الموقف في القديم او الحديث من تفسير إلا سيطرة قوى التخلف على واقع المجتمعات الإسلامية، وهي قوى تقف ضد تحرير العقل وتحارب بضراوة أي محاولة لا تتخذ موقف نقدي من التراث. ولا يكون أمام المفكرين المساندين لهذا القوي والوعي أو باللاوعي إلا الركون إلى "التقليد" الذي يضمن لهم - فيما يظنون - سلامة الدنيا والآخرة.<sup>٥٢</sup>

وعلى ذلك نصر حامد ابو زيد لا تجد علماء القرآن يرفضون رأياً من الآراء في قضايا المكي والمدني أو قضايا أسباب النزول، فلكل رأي وجاهته، ولكل رواية مبررها ومشروعياتها ما دامت رواية صحيحة بمنهج النقدي الخارجي، نقد السند والتحقق من صدق الرواة. فاذا استوت الروايتان في الصحة فالمرجح بينهما ان يكون الراوي حاضراً القصة أو نحو ذلك من وجود الترجيحات.<sup>٥٣</sup> والمثال يناقش هنا هو الآية:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.<sup>٥٤</sup>

رأى مناع القطان أن كون السورة مكية لا ينفي أن تكون آية منها أو أكثر مدنية، وما أخرجه البخاري عن ابن مسعود يدل على أن هذه الآية مدنية.<sup>٥٥</sup> وهي الرواية مخالفة لرواية ابن عباس التي تجعل منها آية وهي رواية رواها الترمذي، والروايتان هما:<sup>٥٦</sup>

<sup>٥٢</sup> نفس المرجع، ص 82.

<sup>٥٣</sup> نفس المرجع.

<sup>٥٤</sup> سورة الإسراء: 85.

<sup>٥٥</sup> مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 89.

<sup>٥٦</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 82.

أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: "كنت أمشي مع النبي -

صلى الله عليه وسلم- بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من

اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة

ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: {قُلِ الرُّوحُ

مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}.

وقد أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: "قالت قريش

لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: أسأله عن الروح،

فسأله فأنزل الله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ...}

الآية، فهذه الرواية تقتضي أنها نزلت بمكة والأول خلافه.<sup>٥٧</sup>

— وإذا كان السيوطي يرجح رواية ابن مسعود على أساس أنه كان حاضراً القصة -

شاهد عيان - فان الزركشي يضع هذه الآيات تحت "ما نزل مرتين".<sup>٥٨</sup> والقول بأن الآية

نزلت مرتين: مرة في مكة ومرة في المدينة مجرد افتراض ذهني للتوفيق بين الروايات. ولكن إذا

كنا في إطار التحقيق التاريخي الذي ينتمي إليه - في جانب منه - علم المكّي والمدني فمن

الضروري استخدام منهج النقد الذي من شأنه أن يقبل أو يرفض بناء على أسس

موضوعية لا علاقة لها بالتوفيق والجمع بين الآراء والروايات المتعارضة. إن القول بنزول الآية

مرتين قول قد يبدو له وجاهته من منظور عالم القرآن القديم الذي يفسر ذلك على أسار

<sup>٥٧</sup> السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ص 23.

<sup>٥٨</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 83. كما شرح الزركشي في البرهان، ص

"التعظيم" و "التذكير"، ولكنه من منظور الدرس العلمي له خطره على قضية "المكي

والمدني" وقضية "أسباب النزول" ذاتهما.<sup>٥٩</sup> وفيما يلي شرح الزركشي:<sup>٦٠</sup>

"وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً به عند حدوث

سببه خوف نسيانه وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين مرة بمكة وأخرى

بالمدينة...

ومثله ما في الصحيحين عن ابن مسعود في قوله تعالى

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة

ومعلوم أن هذه في سورة {سُبْحَانَ} وهي مكة بالاتفاق . وكذلك ما ورد

في {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} أنها جواب للمشركين بمكة وأنها جواب لأهل

الكتاب بالمدينة...

والحكمة في هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة

تقتضى نزول آية وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها فتؤدى تلك الآية بعينها

إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذكيراً لهم بها وبأنها تتضمن هذه والعالم قد

يحدث له حوادث فيتذكر أحاديث وآيات تتضمن الحكم في تلك الواقعة

وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل مع حفظه لذلك النص.

<sup>٥٩</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 83.

<sup>٦٠</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 29-31.

ومن الواضح أن هذا الافتراض - افتراض النزول مرتين - قد أدى إلى افتراض آخر مؤداه أن نصوص القرآن التي نزلت كانت عرضة للنسيان، ومن النبي ذاته. ولذلك كان يحتاج مع تجدد وقائع شبيهة أن ينزل عليه جبريل - مرة أخرى - مذكراً له بالنص السابق الذي أوحى إليه به من قبل. ومع صحة هذا الافتراض الذي تعارض كثير من المرويات عن حرص النبي وحرص الصحابة على حفظ نصوص القرآن، فإن نزول جبريل "مذكراً" لا يعني تكرار النزول، ولا يعني من ثم أن كل روايات أسباب النزول أو المكّي والمدني صحيحة.<sup>٦١</sup>

في هذه الحالة نصر حامد أبو زيد لا توافق على أن هذه الآية نزلت مرتين، إذا كان صحيح اثنانه يفترض أن نزول الوحي على النبي يمكن بسهولة أن تنسى حتى تنزل مرة أخرى للمرة الثانية.

وإذا كانت رواية ابن مسعود السابق الاشارة اليها تنص على حالة الوحي بآية "الروح" في المدينة وتدل من ثم على أنه كان شاهد عيان على نزول الآية، الأمر الذي يرجح روايته على رواية ابن عباس في نظر السيوطي، فإن جدلية علاقة النص بالواقع كفيلة بالكشف عن حقيقة الآية بعيداً عن التلفيق بين الروايات.<sup>٦٢</sup>

ولا يصح اعتراض معترض هنا استناداً إلى أهل مكة لم يكونوا في مستوى عقلي يسمح لهم بالسؤال عن "الروح" لأن ذلك اعتراض يفترض ان مجتمعي مكة والمدينة كانوا

<sup>٦١</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 83-84.

<sup>٦٢</sup> نفس المرجع، ص 84.

مجتمعين منفصلين معزولين مغلق كل منهما على ذاته. إن أهل الكتاب من اليهودي الذي تركوا في يثرب، أو من نصارى نجران، لم يكونوا منفصلين بأي حال من الأحوال عن وثبيي مكة والطائف وغيرهما من بدوي البادية.<sup>٦٣</sup>

إن فصل بين "الأميين" و "أهل الكتاب" فصل من جهة المعتقدات والتصورات

الدينية الغالبة على كل فريق منهما، وإلا فالأمر كما يقول ابن خلدون:

إن العرب لم يكونوا أهل الكتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم

البداءة والأمية. وإذا تشوفوا إلى معرفة شيء مما تشوف إليه النفوس

البشرية فب أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فامكا

يسألون عنه أهل الكتب قبلهم، ويستفدون منهم. وهم أهل التوراة من

اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب

يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل

الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية.<sup>٦٤</sup>

إن كلاً من أهل الكتاب والأميين ينتمى إلى نفس الثقافة رغم اختلاف

العقائد. إن السيرة البوية هنا حريصة على الربط بين الأحداث والنص. فبعد ان اعيت الحيل

أهل مكة تفسير هذه الظاهرة، وفي تصنيف مضمون الوحي، هل هو شعر أم سحر أم

كهانة أم جنون، لجأوا إلى أحبار اليهود، فأرسلوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط:

<sup>٦٣</sup> نفس المرجع.

<sup>٦٤</sup> نفس المرجع. نقل من عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 439.

قالوا لهما : سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله ، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقلت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بمن فإن أخبركم بمن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه ما هي ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه ، فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في امره ما بدا لكم.<sup>٦٥</sup>

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي حتى قدما مكة على قريش . فقالوا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرنا بها . فإن أخبركم عنها فهو نبي وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكمقريش . تسأل والرسول يجيب. فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوفا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي ؟ قال : فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبركم بما سألتهم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه.

<sup>٦٥</sup> عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، (بيروت: دار الجيل، 1411)، ج 2، ص 139.

فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أوجف أهل مكة ، وقالوا: وعدنا محمدا غدا واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يجبرنا بشيء مما سأله عنه ، وحتى احزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة اصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح.<sup>٦٦</sup>

وتمضي السيرة بعد ذلك في الكشف عن تفاصيل الرد على المشركين، رابطة بين أحوال المشركين مع النبي من جهة وبين النص من جهة أخرى. إن السيرة لا تطرح تفسيراً لسبب نزول الآية واحدة، بل تربط بين سورة الكهف كلها وبين مرحلة من مراحل الدعوة في مكة. إن السيرة هنا تطرح سبب النزول وتحدد من ثم مكية الآيات بطريقة أكثر ارتباطاً بالنص من جهة وبالواقع من جهة أخرى. بل انها تتجاوز ذلك إلى التعليل النابع من الأحساس بجدلية العلاقة بين الواقع والنص.<sup>٦٧</sup>

الإيضاحات أعلاه تشير إلى أن ينزل النص مع الحكم في النص عليها. هذا هو وفقا لما قاله نصر حامد أبو زيد منذ البداية قد لا تقع أن تقدم النص على الحكم أو خلاف ذلك.

<sup>٦٦</sup> نفس المرجع، ص 140.

<sup>٦٧</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 85-86.



إن السيرة النبوية تقوم في كثير من مروياتها بالربط بين أحداث الواقع وبين النص. ولذلك تعجب من تجاهل علماء القرآن لمرويات السيرة سواء في مجال التفسير أم في مجال "أسباب النزول"، رغم اعتمادهم في علومهم كلها على مرويات لا تعلق كثيرا على مرويات السيرة من حيث طرق التحمل والأداء.<sup>٦٨</sup> وهذا عبر عنه الإمام أحمد بين حنبل في قوله: "ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم و المغازي".

#### د. فرض تكرار النزول

إن منهج التلفيق بين الروايات المختلفة والمتعارضة بصرف النظر عن صدقها - سواء من جهة اتفاتها مع الوقائع أم من جهة اتفاتها مع معطيات النص - قد تجاوز أسباب النزول وحدود التمييز بين المكّي والمدني إلى مجال الآراء المختلفة في التفسير. لقد صار العالم القديم قادراً بحكم منهجه التلفيقي على القول، بأن منطوق الآية أو الآيات يحمل المعاني المختلفة التي وردت فيها على أسلافه. وما دام منهج التلفيق قد وصل إلى افتراض امكانية نزول الآية أو السورة مرتين، فلماذا لا يكون كل نزول منها مرتبطاً بمعنى محدد، بحيث يكون تعدد المعاني مرهوناً بتعدد مرات النزول، لا صفة في جدلية علاقة القارئ مع النص، أو في تفاعل النص مع الواقع والثقافة.<sup>٦٩</sup>

بمناسبة المعاني المختلفة و تعدد النزول هذا شرح السيوطي عن هذه المسألة: ومن التنازع الموجود عندهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين إما لكونه مشتركاً في اللغة كلفظ

<sup>٦٨</sup> نفس المرجع، ص 86.

<sup>٦٩</sup> نفس المرجع.

قسورة الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد ولفظ عسعس الذي يراد به إقبال الليل وإدباره .  
 وإما لكونه متواطئاً في الأصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشخصين كالضمائر في  
 قوله ثم دنا فتدلى . . الآية وكلفظ الفجر والشفع والوتر وليال عشر وأشباه ذلك فمثل هذا  
 قد يجوز أن يراد كل المعاني التي قالها السلف وقد لا يجوز ذلك . فالأول إما لكون الآية  
 نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معناه  
 وإما لكون اللفظ متواطئاً فيكون عاماً إذا لم يكن لمخصصه موجب فهذا النوع إذا صح  
 فيه القولان كان من الصنف الثاني. ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس إختلافاً  
 أن يعبروا عن المعاني بالألفاظ متقاربة كما إذا فسر بعضهم تبسل ب تحبس وبعضهم ب  
 ترهن لأن كلا منهما قريب من الآخر.<sup>٧٠</sup>

وإذا كانت ظاهرة الإشتراك اللغوي أو الألفاظ المحتملة و المتواطئة ظواهر لا توجد  
 في التركيب، إذ التركيب اللغوي بكل علاقاته، من علاقات تجاور وعلاقات استبدال يزيل  
 هذا الغموض ويحدد الدلالة، فان منظور علماء القرآن ينتهي إلى صحة كل المعاني التي قالها  
 السلف. وذلك تجنباً لأي نقدي حقيقي لرأي قديم. ومن شأن هذه الافتراضات وما  
 يصاحبها من افتراض تعدد مرات النزول أن يقضي على مفهوم النص ذاته، وذلك بالقضاء  
 على جذوره الدلالية الناتجة من علاقته بالواقع وجدوله مع الثقافة.<sup>٧١</sup>

<sup>٧٠</sup> السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج 2، ص 177.

<sup>٧١</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 87.

كرر نزول الآية الذي ربما بسبب وجود معنى الإشتراك عند نصر حامد ابو زيد هو غير ممكن، يحدث ذلك لأن العلماء لمتربط العلاقة بين النص والحقيقة ما حدث عندما نزول الآية. ثم بواسطة نصر حامد ابو زيد إذا بين النص والواقع الذي يحدث عند نزول الآية مرتبط لن يكون هناك أي معنى الإشتراك في القرآن.

ولقد كان الخلاف في الروايات التي وردت حول سورتي الفاتحة والإخلاص، وهل هما مكياتان او مدنياتان، ومحاولة العلماء المتأخرين الجمع بين كل الروايات، ورأى هذا الإصرار على أن كلتا السورتين نزلت مرتين: مرة في مكة ومرة في المدينة.<sup>٧٢</sup> بمناسبة على هذا قال الزركشي: قيل في الفاتحة نزلت مرتين مرة بمكة وأخرى بالمدينة وكذلك ما ورد في {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} أنها جواب للمشركين بمكة وأنها جواب لأهل الكتاب بالمدينة.<sup>٧٣</sup>

هذا رغم أن سورة الفاتحة جزء أصيل من شعيرة الصلاة التي لا تتم إل بقراءتها، والمعلوم المشهور أن صلاة فرضت في نهاية المرحلة المكية، ليلية المعراج بلا خلاف. كما في الحديث: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "فُرِحَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَعَرَّجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَفَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُ رَبِّي قَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ".<sup>٧٤</sup> وإن كانت السيرة ترى أنها فرضت قبل ذلك،<sup>٧٥</sup> كما شرح الحديث: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: "

<sup>٧٢</sup> نفس المرجع.

<sup>٧٣</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 29-30.

<sup>٧٤</sup> أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الصغير للبيهقي، (باكستان: جامعة الدراسات الإسلامية،

1410هـ - 1989م)، الطبعة: الأولى، ج 1، ص 110.

<sup>٧٥</sup> عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 227.

إِنَّ أَوَّلَ مَا فُرِضَتْ الصَّلَاةُ رَكَعَتَيْنِ فَلَمَّا قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَاطْمَأَنَّ  
 زَادَ رَكَعَتَيْنِ غَيْرِ الْمَغْرِبِ لِأَنَّهَا وَثْرٌ، وَصَلَاةُ الْعَدَاةِ لِطُولِ قِرَاءَتِهَا قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا سَافَرَ  
 صَلَّى صَلَاتَهُ الْأُولَى".<sup>٧٦</sup>

وسواء كان فرض الصلاة قبل المعراج أم بعده فلا بد ان تكون سورة الفاتحة قد  
 نزلت قبل ذلك، ولا بد من ثم ان تكون مكية. ورغم ان كلا من السيوطي و الزركشي في  
 المكي و المدني يقرّ أنها سورة مكية،<sup>٧٧</sup> فإنهما في أسباب النزول يقررنا أنها من السور التي  
 نزلت مرتين. والسبب هذا التضارب في أقوالهما أن المفسرين ذهبوا إلى أن معنى "المغضوب  
 عليهم" و "الضالين" اليهود والنصارى. وقد تحاول هذا التفسير، أو بالأحرى التأويل، إلى  
 أن يكون منطوقا للنص عند المتأخرين من العلماء. ومن هنا نشأ أصل القول بأن السورة  
 مدنية مادامت تتضمن اشارة إلى اليهود النصارى، أي إلى أهل الكتاب. من هنا نشأ  
 التعارض بين هذا الفهم الذي يضعها في دائرة المدني وبين الروايات والحقائق التي تؤكد انها  
 من القرآن المكي. وبسبب عجز العالم المتأخر عن اتخاذ موقف النقدي لجأ إلى التلفيق بين  
 الأمرين بالقول أنها نزلت مرتين.<sup>٧٨</sup>

والأمر في سورة الإخلاص أوضح من ذلك وأبين. فالسورة ذاتها — من حيث  
 تركيبها وبنائها اللغوي وقصر آياتها وتكرار الفاصلة — تؤكد أنها مكية. والسورة أيضاً

<sup>٧٦</sup> البيهقي، السنن الصغير للبيهقي، ص 110.

<sup>٧٧</sup> انظر في السيوطي، ج 1، ص 10. و في الزركشي، ص 193-194.

<sup>٧٨</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 88.

من حيث مضمونها تدور حول التوحيد.<sup>٧٩</sup> وهي قضية القضايا في مواجهة المشركين وعبدة الأوثان. ولم يكن الخلاف مع اهل الكتاب من اليهود والنصارى خلافاً حول مبدأ التوحيد ذاته، بل كان خلافاً حول مفهوم التوحيد مع النصرانية من جهة، وخلافاً حول تفاصيل الشريعة وقضايا الحرام والحلال مع اليهود من جهة أخرى وعلي ذلك فالروايات التي تنسب إلى اليهود أنهم سألوا محمداً عن نسب الرب، وتفترض من ثم أن السورة مدنية روايات يجب ألا يعتد بها.<sup>٨٠</sup>

حسب نصر حامد أبو زيد أن سورة الفاتحة هي المكّي، لأن هذه السورة هي من أركان الصلاة وفرض الصلاة حين وقع معراج النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك فهو لا يتفق مع العلماء الذين يقولون أن سورة الفاتحة نزلت مرتين.

### هـ. الفصل بين النص والحكم

لا شك أن علاقة التلازم بين المنطوق اللغوي للنص و بين دلالاته أمر بديهي.<sup>٨١</sup>

وهو ما أشار إليه ابن خلدون وهو يفرق بين حالتي الوحي بالقول إن:

"التلقي من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كله

كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر، لأنه ليس في زمان، بل

<sup>٧٩</sup> انظر شرح السيوطي و الزركشي و صبحي الصالح في باب معايير التمييز.

<sup>٨٠</sup> نفس المرجع.

<sup>٨١</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 89.

كله تقع جميعاً فيظهر كأنه سريعة ولذلك سميت وحياً لأن الوحي في

اللغة الإسراع.<sup>٨٢</sup>

وهو ما يعبر عنه نصر حامد أبو زيد بلغة أقرب إلى المعاصرة فيقول إن علاقة

الإتصال اللغوي بين مرسل و مستقبل لا تنقسم إلى علامات تتبعها علة الدلالة، بل حركة

الفهم وفك شفرة الرسالة تتزامن مع عملية البث من جانب المرسل. وتذهب بعض

اتجاهات الفكر المعاصر إلى أن عملية فهم النصوص لا تبدأ من قراءة النص، بل تبدأ قبل

ذلك من الدوال الرابطة بين الثقافة التي تمثل أفق القارئ وبين النص.<sup>٨٣</sup> وفي حالة النص

القرآني لا بد أن يتزامن "سبب النزول" مع النص مع حكمه أو دلالاته.

لكن علماء القرآن أحياناً ما يلغون علاقة التلازم والتزامن الضرورية هذه بين النص

والدلالة. وذلك بافتراضهم امكانية أن يسبق النص الحكم، بمعنى أن ينزل النص أولاً في

المرحلة المكية ثم يتقرر حكمه الشرعي أو الفقهي بعد ذلك في المرحلة المدنية.<sup>٨٤</sup> واعلم قد

يكون النزول سابقاً على الحكم كقوله قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى فقد روى

البيهقي وغيره عن ابن عمر أنها نزلت في زكاة الفطر وأخرج البزار نحوه مرفوعاً . وقال ابن

الحصار ذكر الله الزكاة في السور المكيات كثيراً تصريحاً وتعريضاً بأن الله سينجز وعده

<sup>٨٢</sup> نفس المرجع. نقل من عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 98.

<sup>٨٣</sup> نفس المرجع، ص

<sup>٨٤</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 89.

لرسوله ويقيم دينه ويظهره حتى تفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف.<sup>٨٥</sup>

وكان من الطبيعي أن يفترض أيضاً - بحكم علاقة التلازم المنطقي - امكانية ان ينزل الحكم اولاً في المرحلة المكية، ثم يرد النص الدال عليه بعد ذلك في المرحلة المدنية، كما شرحنا سابقاً. ويؤدي الافتراض الأول إلى وجود نصوص المعطلة عن أحكامها، أي نصوص غير دالة. والنص إذا كان غير دالة فقد أهم خاصية فيه بوصفه نصاً، أو بالأحرى يتوقف عن ان يكون نصاً. أما الافتراض الثاني فيؤدي بداهة إلى امكانية الوحي/الإتصال بدون نص.<sup>٨٦</sup>

وقال نصر حامد ابو زيد إن العلماء تجاهل اعتماد النص بالوقت . وذلك لأن العلماء يفترض أن هنا كآليات التي تقدم نزول الآية على الحكم، وبالعكس. تقدم الحكم على نزول الآية. ومن جانب نصر حامد ابو زيد غير مقبول. لأن النصوص والقوانين ومع ذلك يتضمن الآيات لا يمكن فصلها.

وإذا كان علماء القرآن يدركون دون شك أن "السنة" نص فلا شك أن افتراضهم تأخر النصوص عن أحكامها افتراض ناشئ عن تجاهلهم احياناً - أو تناسيهم - للنص "السنة". إن هذا الافتراض معناه ان تصور هؤلاء العلماء للنص الديني تصور يقصره على "القرآن" ويرى السنة " مذكرة تفسيرية". وهذا تصور مخالف لتصور الفقهاء والأصوليين.

<sup>٨٥</sup> الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 33. وانظر أيضاً في السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج 1، ص 36. وانظر أيضاً مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 93.

<sup>٨٦</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 90.





ويروي سبب نزول الآية على الوجه التالي: عن عائشة قالت سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ونزل فثنى رأسه في حجري راقدا وأقبل أبو بكر فلكرني لكزة شديدة وقال حبست الناس في قلادة ثم إن النبي استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة إلى قوله لعلكم تشكرون فالآية مدنية إجماعاً وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة . قال ابن عبد البر معلوم عند جميع أهل المغازي أنه لم يصل منذ فرضت عليه الصلاة إلا بوضوء ولا يدفع ذلك إلا جاهل أو معاند قال والحكمة في نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به ليكون فرضه متلوا بالتنزيل . وقال غيره يحتمل أن يكون أول الآية نزل مقدماً مع فرض الوضوء ثم نزل بقيتها وهو ذكر التيمم في هذه القصة، قلت يردده الإجماع على أن الآية مدنية.<sup>٩٠</sup>

إن ما ترويه السيرة عن كيفية تعليم جبريل للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوضوء والصلاة معاً بطريقة عملية هو الأقرب إلى تصور مفهوم الشامل للنص الديني.<sup>٩١</sup> ذلك أن القرآن لم يتضمن كيفية الصلاة ولا عدد الركعات ولا تحديد الفروض من النوافل وإنما أشار إشارة مجملية إلى فرض الصلاة وإلى وجوبها. وفي مثل هذا التصور لا يختلف النص عن الحكم، بل يكون النص مقارناً للحكم ومتزامناً معه. ومع ذلك فأية سورة المائدة محل الخلاف ليست "نصاً" في الوضوء بل هو نص في التيمم.<sup>٩٢</sup>




<sup>٩٠</sup> السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج 1، ص 36.































<sup>٩١</sup> عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 227-228.

<sup>٩٢</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 91.

ومن أمثلة الخلط بين مستوى الدلالة اللغوية ومستوى الدلالة الشرعية للنصوص

فهم قوله تعالى:                   

إشارة إلى الحج. ويكون معنى "حل" على هذا التأويل الأحلال المقابل للإحرام. والواقع أن

معنى "حل" هنا "مقيم". والقسم إنما هو قسم بمكة حيث يقيم النبي صلى الله عليه

وسلم.<sup>٩٤</sup>

ولقد تنبه العلماء إلى أن الفصل بين المكي والمدني ليس دائماً فصلاً حاسماً، فمن

النصوص المدنية نصوص تحمل خصائص النصوص المكية، وكذلك من النصوص المكية

تحمل خصائص النصوص المدنية. إن التحول من مرحلة إلى أخرى - على مستوى الواقع

وعلى مستوى النص - لا يتم عبر طفرة، بل هو تحول تدريجي. لذلك قد نجد في

النصوص المكية ما يمكن أن يكون دالاً على تطور رقيق في المرحلة المدنية.<sup>٩٥</sup>

<sup>٩٣</sup> سورة البلد: 1-2.

<sup>٩٤</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 93.

<sup>٩٥</sup> نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص 95.